مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزءان الثالث والرابع ـ المجلد الاربعون

بغـــــداد ٦٩,٧٠

١٤١٠هـ = ١٩٨٩م

العرب والمحيط الهندي في العصور الاسلامية الوسطى

الدكتور علي محمد المياح
(عضو المجمع)

مقدمة :

لم تكن علاقة العرب باحداث المحيط الهندي سلبية طوال تاريخ صلتهم به ، بل انهم على نقيض ذلك ، جعلوا من مياهه وسيلة لنقل الايمان والخير والاستقرار الى شعوبه . وظلوا سادة فيه طوال سبعة قرون متواصلة شهدت فيه شعوب هذا المحيط أمناً ورخاءً انحسرت خلالها عن تلك الشعوب كل نوازع العدوان والتسلط الأجنبي . واذا كانت بعض ثوابت المحيط الهندي لاتزال تحتفظ بخصائصها موقعاً وأرضاً ومناخاً ، فإنّ وظائفها خضعت لتغيرات مستمرة ارتبطت بتغير مصادر الثروة ، وتباين مواقعها ، وتغير الاوضاع السياسية ، واختلاف مواقع الكثافة السكانية ، ودرجة تركزها ، وتعدد مراكز القوى وتضارب مصالحها ، إضافة الى التطور التقني الذي أوجد أوضاعاً جديدة . ان هذه الحقائق مجتمعة تحدث متغيرات لها صلتها بعلاقة العرب في هذا المحيط . ولكن البحث سيقتصر على ابراز بعض ما كان عليه الحال في العصور الاسلامية الوسطى . وهذه تكون مشكلة يحاول هذا البحث ان ينهض بها ويتقصّى ملامحها العامة . وهي مهمة علمية تقتضي ضروراتها الاولية عرض جغرافية هذا المحيط بصورة عامة توضح بعض الجوانب الاساسية التى لها صلة بموضوع البحث .

المحيط الهندي :

تأتي تسمية هذا المحيط متباينـة في تراثنـا العلمي العربي ، إذ يقول البيروني (وهذا البحر يسمى في اكثر الاحوال باسم مافيه أو ما يحاذيه ونحن نحتاج الى ما يحاذي أرض الهند فيسمى بهم)(١) • ولذلك فهو البحر الحبشي عند المسعودي(٢) ، والبحر الصيني كما يسميه المقدسي(٣) ، في حين يذهب شيخ الربوة الى تسميته بالبحر المحيط الجنوبي(٤) • ولم يكتب عن تاريخ هذا المحيط رغم اهميته سوى النزر القليل • وهو تاريخ كان للعرب شأن كبير في أحداثه وتفاصيل حضارته •

تبلغ مساحة المحيط الهندي ٢٨ مليون ميل مربع بما في ذلك بحاره وخلجانه • ويعتبر البعض البحر الأحمر والخليج العربي وخليج البنغال أجزاءً منه(٥) • وهذه حقيقة ذكرها علماء العرب في كتب التراث وأوردها المسعودي ، كما نص عليها النويري وهو يتحدث عنه حيث يقول (ويخرج

---

(١) ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠) ، تحقيق ما للهند من مقولة ، مطبعة مجلس دائـرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٧٧هـ /١٩٥٨م ، ص ١٥٧ .

(٢) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، التنبيه والاشراف ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ٦٢ .

(٣) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن ابى بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري (ت ٣٨٠هـ) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص ١٢ .

(٤) شيخ الربـوة شمس الديـن ابو عبد اللـه بـن ابي طالـب الصوفي الدمشقي (ت ٧٢٧هـ) نخبة الدهـر في عجائـب البـر والبحـر ، أوتو هارسو فيتز ، لايبزك ، ١٩٢٨م ، ص ١٤٨ .

(٥) William W. Jeffries edt., Geography and National Power, George Banta Co., Menasha, Wisconson, 4th edition, 1967, P. 149.

من هذا البحر خليجان أحدهما بحر القلزم والآخر بحر العرب)[٦] • وعليه فهو أصغر المحيطات الكبرى في العالم مساحة • ويكاد يأخذ المحيط شكل مُعَيَّن هندسي تمثل القارة القطبية الجنوبية ضلعه الجنوبي ، في حين تكوّن شبه جزيرة الهند وشبه جزيرة العرب ضلعه الشمالي • ويمثل ضلعه الشرقي مجموعة جزر اندونيسيا وقارة استراليا • ويمتد ضلعه الغربي بمحاذاة ساحل افريقيا الشرقي • (خريطة ١) •

وتنحصر أوسع جهاته بين خطي طول (٤٠°) غرباً و (١١٠°) شرقاً ، وبين القارة القطبية الجنوبية ودائرة عرض (٣٠°) شمالاً • وهذا موقع فلكي يضع أكبر مساحاته على مقربة من خط الاستواء ، ويجعل مياهه دافئة صالحة للملاحة طول العام • وهي مياه عميقة يبلغ معدل عمقها حوالي (٣٨٧٣) متراً[٧] • وهكذا تتمتع السفن المحيطيّة فيه بحركة ملاحية حرة ، وتستطيع ان تتخطى المناطق الضحلة أو الحواجز المرجانية التي تكتنف بعض سواحله • وليس في هذا المحيط تيارات محيطية تعيق الملاحة ، ولا تجتاحه عواصف شديدة تعرض السفن لخطر الضياع ، الا مايحدث نادراً في بعض جهاته الشمالية الشرقية في فصل الصيف •

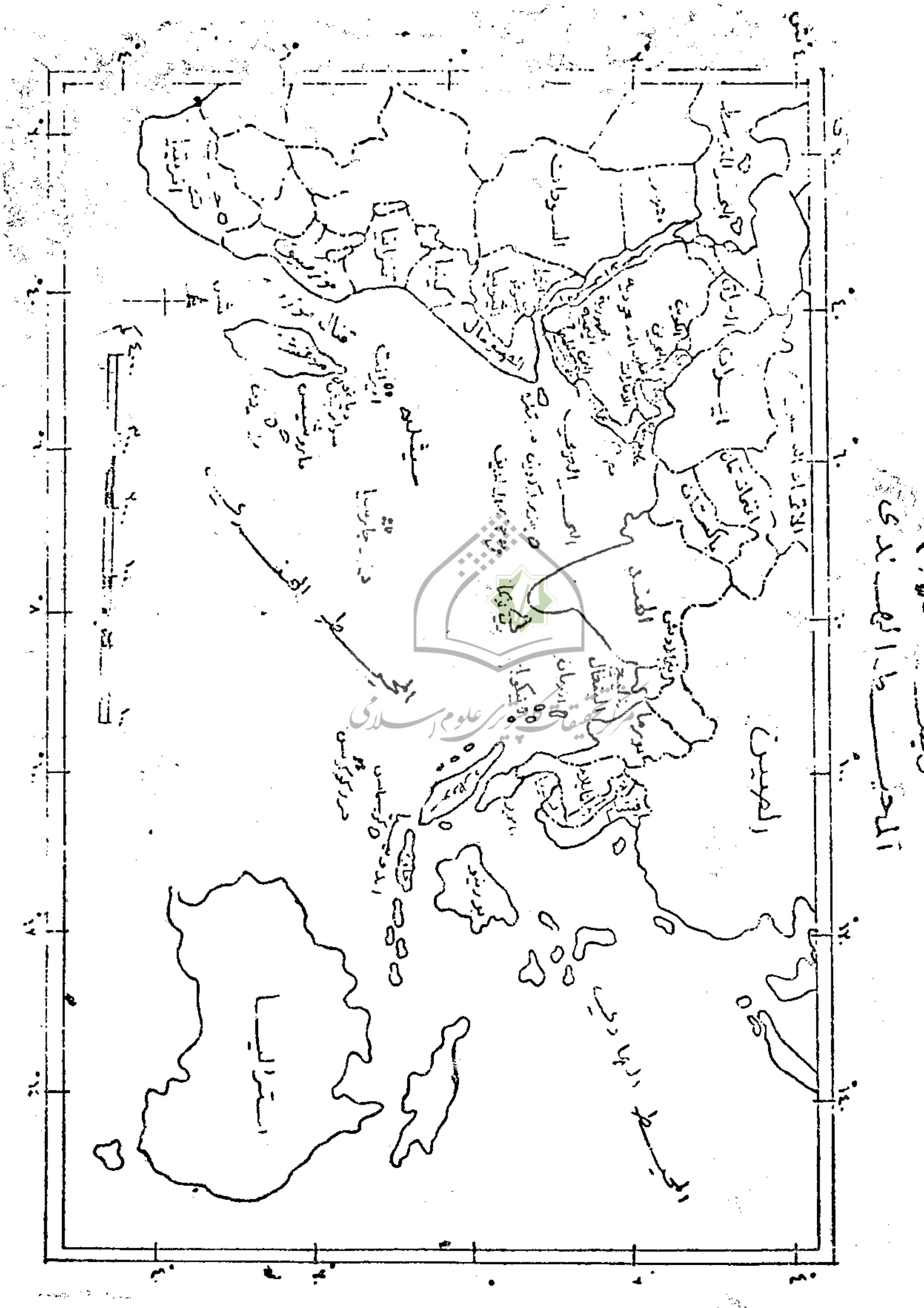
وتنتشر في هذا المحيط كثير من الجزر تنتظم في مجموعات واضحة في الجنوب والوسط والشمال • واذا تركنا مجموعة الجزر الجنوبية جانباً لقلة

---

(٦) شهاب‌الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، السفر الاول ، ط ٢ ، ١٩٢٩م ، ص ٢٣٣ .

(٧)

R. Sengupta and S. Z. Qasim, An Environmental Overview, in the Sharma edt., The Ocean Realities and Prospects, Rajesh Publications, New Delhi, 1985, P. 9.



سكانها وموقعها القصي عن مراكز النشاط الملاحي والاحـداث التاريخية المهمة ، فان المجموعة الوسطى تشمل جزيرة مدغشقر وجزيرة ماروشيس وأرخبيل تشاكوس وجزر كوكس • وجزيرة مدغشقر اكبر جزر المحيط الهندي ويفصلها عن ساحل موزمبيق قنال عرضه (٥٠) ميلاً • وتعتبر مجموعـة جزر كوكس محطة تقع على الطريق الملاحي الذي يربط بين الهند واستراليا • أما المجموعة الشمالية فتكونها جزر كثيرة أهمها جاوة وسومطرة وأرخبيل أندمان وسري لانكا وجزر لاكديف و مالديف • وهذه اكثر مجموعات جزر المحيط الهندي أهميته لموقعها القريب من اليابس الاسيوي ولارتباطها به من الناحية البشرية والاقتصادية إضافة الى أهميتها السوقية • وكانت للعرب مراكز استقرار فيها او صلات تجارية معها • وتتحكم هذه الجزر بالممرات والمضايق التي تربط المحيط الهندي ببقية المحيطات ، وتكون جزءاً من المنطقة الجزرية الهلالية التي تحيط بقارة آسيا ، وقلاعاً دفاعية خارجية(٨) •

وللمحيط الهندي ممرات كثيرة تتحكم بمداخلـه أهمها من الناحيـة الغربية ، رأس الرجاء الصالح وقناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز • واذا استثنيا المر الاول فـان بقية مضايقه في هذه الجهة تقـع في الأرض العربية • وتعد مضايق ملقا أهم مداخلـه من الناحية الشرقية • وللانهار القابلة للملاحة أهمية خاصة على الصعيدين الاقتصادي والعسكري • فهي من ناحية ، تمهد طريق نقل رخيص يتعمق في اليابسة وييسر استيراد نواقص الحاجات وتصدير فائض المواد والسلع • وتقع الانهار ، من ناحية اخرى ، تحت رحمة الاسطول وتصبح بذلك من متطلبات السيطرة على المحيط والتحكم فيه •

(٨) William W. Jeffries editor, Geography and National Power, op. cit., PP. 150 — 151.

ويستمد المحيط الهندي أهميته من غنى المناطق التي تحاذيه بثرواتها الزراعية والمعدنية •

هذا الموقع الجغرافي وسط ثراء عريض وحركة ملاحية طليقة طوال العام ، جعلت من المحيط الهندى ـ منذ القدم ـ مركز احتكاك بشري ، تارة يتسم بتبادل حضارى سلمي ، وتارة يتحول الى صدام مسلح • ويزخر التاريخ بوقائع تنافس الدول القريبة منه والبعيدة عنه للحصول على نصيب من هذا الثراء والاستحواذ على موضع قدم فيه • بل ان تضارب المصالح الاستعمارية في المحيط الهندي أدت الى كثير من الحروب بين الدول الاروبية بعيداً عن ساحته • إن هذه الخصائص التي يتميز بها هذا المحيط سواء أكانت طبيعية أم اقتصادية ، فضلا عن حقائق الجوار الجغرافي التي وضعت مناطق واسعة من الأرض العربية على صلة به ، تركت آثارها على نشاط العرب فيه وأمنهم القومي ، منذ اقدم العصور التاريخية • وهي صلات نتجت عنها ظواهر متباينة ، سيرد ذكر تفاصيلها في تضاعيف البحث •

ترتبط الأرض العربية بالمحيط الهندي ارتباطاً وثيقاً لا انفصام فيه • ويبرز ذلك الارتباط في ناحيتين هما :

١ ـ الجوار الجغرافي المباشر حيث تطل الأرض العربية بسواحل طويلة على المحيط ذاته وعلى ماينتفرع منه من بحار وخلجان ولاسيما البحر العربي والخليج العربي والبحر الاحمر • إذ يبلغ طول السواحل العربية على المحيط الهندي ٧١٠٠ (كم) ، وطولها على البحر الاحمر ٥٥٢٠ (كم) بينما يصل طولها على الخليج العربي الى ١٠٨٩ (كم) • وتظهر آثار العرب واضحة على جبهات المحيط التي تجاور الأرض العربية حتى اقتبست تسمياتها منها مثل خليج عدن وخليج عمان والبحر العربي • وهي تسميات تعكس صلة ايجابية بين العرب والمحيط كما تعكس مؤثراتهم الحضارية في مختلف جهاته • وهي تسميات تحمل في

طياتها ، دون شك ، قوة الامة العربية ومكانتها المتقدمة على المستوى الدولي .

٢ ـ صلة عبر مباشرة تبرز من موقع الأرض العربية بين البحر المتوسط والمحيط الهندي . هذا الشريط الذي يمتد من سواحل فلسطين الى البصرة من شمال الخليج العربي ، كان ولايزال من أهم الممرات السوقية البرية التي تربط بينهما . إذ من السهل نسبياً المرور من الخليج العربي الى البحر المتوسط عبر نهر الفرات ووادي نهر العاصي ، بين جبال لبنان الشرقية والغربية ، ونهر الليطاني وأعالي نهر الأردن ومن ثَمَّ سهل مرج بني عامر مروراً بمجدو . ويحدثنا التاريخ ان الموقع كان مسلكاً لسير القوافل أو مكاناً لتجمع الجيوش ، حيث يمكن الوصول من هذا السهل الى مصر عبر شريط صحراوي ضيق . ومعنى هذا القول ان وظيفة دجلة والفرات لاتنحصر فيما يحملان من ماء فيه كل الخير والنماء لسكان واديهما ، وانما يكونان من الناحية الاقتصادية والعسكرية طرقاً مهمة للحركة .

لقد كتب مولتكه ، القائد الألماني المعروف ، لصديق يبين له أهمية هذا الطريق قائلاً : (يصل الفرات اقصى نقاطه الغربية عند مدينة Rumkela « بيرجك الحالية » . وهي مدينة قطعت من الصخر . وكانت سابقاً موقعاً لقلعة زويجما Zeugma الرومانية . وكان على الفرات عند هذه المدينة جسر للعبور في الأزمنة القديمة . ولعل هذا هو السبب الذي حمل الرومان على إقامة مستعمرة لهم في مكان مثل هذا يستحيل المرور عبره . وفي ليلة سطعت نجومها وقفت وسط خرائب زويجما . وكان الفرات في الاسفل يتلألأ وهو يجري في وادٍ صخري ضيق . وكانت سكينة الليل تسود المكان لايعكر صفوها سوى خرير ماء الفرات . هنا مرت أمامي ، في ضوء القمر ، أطياف الاسكندر وزينفون وجوليان . كل هؤلاء نظروا من هذه البقعة الصخرية الى الأرض الممتدة عبر النهر ، بقعة لم يستطع الوقت ولا الطبيعة

من تغيير معالمها)(٩) • وكانت الرسائل التى كتبها مولتكه عن تركيا ووادي الرافدين مهمة جداً من الناحية العسكرية بحيث ان اللورد ولزلي Wolseley قرأها وهو في الخنادق يحارب على جبهة سواستيبول(١٠) • وهذا يعني ان شريط اليابس الممتد من الخليج العربي الى البحر المتوسط يكون إقليماً متصلاً ، يسند بعضه بعضاً ، ويترك آثاراً أمنية متبادلة • ولعل تفريع الموضوع في هذه المرحلة من البحث ييسر مناقشته وذكر تفاصيله •

مرحلة الاستقرار والأمن

تتميز السواحل العربية المطلة على المحيط الهندي والبحار والخلجان المتفرعة منه بدفء مياهها وقلة اضطرابها طول العام ، فضلاً عن كثرة خلجانها واخوارها • وهذه عوامل اساسية تتيح ظروفاً ملائمة جداً لحركة ملاحية حرة • وقد ساعدت هذه الظروف المثالية نسبياً في تطور أول مدرسة ملاحية عرفها التاريخ على سواحل الخليج العربي • ونقل الفينيقيون ، وهم في الأصل من عرب الخليج ، مهارتهم في ركوب البحر الى البحر المتوسط وأقاموا على سواحله الشرقية دولة تجارية بحرية لها مكانتها في التاريخ ، ابتداء من سنة (١٦٠٠) ق• م• (١١) وكانت لهم مراكز تجارية حصينة انتشرت على سواحل البحر المتوسط ، في مالطا ومرسيليا وصقلية وعلى ضفاف نهر الوادي الكبير

(٩) T. Miller Maguire, Outlines of Military Geography, Cambridge, University Press, 1900, P. 286.

(١٠) Ibid., P. 10.

(١١) John R. Spears, Master Mariners, London, William and Norgate, Year —, P. 10.

وقادس . كما انهم انشأوا مدينة قرطاجنة . وبذلك تحول البحر المتوسط على ايديهم من ساحة مائية حاجزة الى طريق عام يربط بين قارة اسيا وأوربا وأفريقيا .

ولم يدم الحال على ما هو عليه فقد برزت روما قوة في البحر المتوسط تحاول ان تمد نفوذها الى مناطق بعيدة ، بما في ذلك شبه جزيرة العرب وسواحلها المطلة على المحيط الهندي . إذ تذكر المصادر التاريخية ان أوكتافيوس أغسطس لما فرغ من الاستيلاء على مصر ، وجعلها تابعة لحكم قياصرة روما ، أوعز الى حاكم مصر أوليوس غالوس بغزو شبه جزيرة العرب للاستيلاء على ثروتها العظيمة ، التي اشتهرت بها من الاتجار بالمُرّ واللبان والبخور والأفاويه ، فضلا عن ضمان مصالح روما في ذلك الجزء من العالم . وجعل البحر الأحمر بحراً رومانياً[١٢] . وكان للصمغ الظفاري اسواق في سورية ومصر ، كما كانت تجارته من أسباب رخاء سكان شبه جزيرة العرب[١٣] . وبدأت الحملة العدوانية سنة (٢٤) ق.م من سواحل مصر على البحر الأحمر . وكان عدد الجند حوالي عشرة آلاف نقلوا على ظهر (١٣٠) سفينة ، رست بهم في ميناء (لويكة كومة) ، وهو ميناء ينبع او الحوراء على ساحل الحجاز . وقطعت الحملة (٩٠٠) ميل . الا أن سوء تقدير الرومان واستهانتهم بطبيعة شبه جزيرة العرب وجهلهم قساوة البيئة في داخليتها وعدم تمكن الجيوش النظامية من المحاربة فيها ، تحت وطأة عطش شديد ، أرغمت الجيش الروماني على التراجع بعد أن هلك معظم أفراده وأصيبت مطامع روما

(١٢) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٧٧ ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(١٣) ولفريد ثيسجر ، رمال العرب ، ترجمة نجدة هاجر وابراهيم عبد الستار ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ط ١ ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٤ .

والمشاريع التي رسمتها وأرادت أن تحققها في شبه جزيرة العرب بنكسة كبيرة •

يدل هذا الحدث على ما يأتي :

ا ــ ان الحفاظ على الأمن القومي في البحر المتوسط وحدة لاتنفصم عن أمنه في منطقة المحيط الهندي • ولاسيما ان المسافة بين بحر القلزم (البحر الاحمر) وبين بحر الروم (المتوسط) على سمت الفرما أربع مراحل(١٤) •

ب ــ ان العدوان الروماني كان يهدد الأمن القومي من الناحية العسكرية والاقتصادية في آن واحد • إذ يحقق للرومان مواضع سوقية على أرض الجزيرة وسواحلها ويسلب العرب بعض مصادر ثروتهم وغناهم وقوتهم •

جـ ــ ان سعة الأرض العربية وعمقها السوقي يعدان عاملين مهمين في صد العدوان وكسر شوكة المعتدي • فالمداخل الخلفية العربية ، حيث يقل السكان وتسود ظروف البيئة الصحراوية ، كانت ، ولا تزال ، سبيلا وعراً لايستطيع الاعداء اختراقه •

د ــ ان قوات العدو المحمولة بحرا تتعرض لمصاعب إدارية جسيمة كلما بعدت عن قواعد إمدادها الرئيسة ، مما يعرضها لهزيمة منكرة ، إذا ما حاولت التوغل في عمق الأرض العربية •

لقد أقام العرب على ساحل الخليج العربي منذ أقدم الأزمنة قلاعاً حصينة، عند مدخله وعلى طول سواحله الشرقية ، حفاظاً على أمن موطنهم وحماية

(١٤) ابو إسحق ابراهيم بن محمد الاصطخري المعروف بالكرخي ، (النصف الاول من القرن الرابع الهجري) المسالك والممالك ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٦٧م ، ص ٧ .

لنشاطهم التجاري . وكانت هذه القلاع تمثل خط الدفاع الأمامي لصد عدوان المعتدين . وكان لهم من العدة والبأس والقوة بالرجال والدواب والكراع ما يصعب على أحد أمرهم ، إذا أراد تحيّفهم وتهضّمهم . واكثرهم من ولد كرد بن مُرد بن عمرو بن عامر [١٥] . ومن هؤلاء آل عُمارة ويعرفون بآل الجُلَندى . وبني الجلندى ابن كركر من القبائل اليمانية وكانت لهم مملكة عريضة وضياع كثيرة وقلاع على سيف البحر قبل عهد موسى (ع) وهم قوم من أزد اليمن[١٦] . ويقول صاحب كتاب الأكليل لما تفرقت الأزد بعد خراب سد مأرب ، نزلت فرقة منها عمان فقيل لهم أزد عمان ، وفرقة نزلت السراة ، وهو موضع باطراف اليمن مما يلي عسير ، أو أزد شنوءة وهم أيضاً بالسراة ، ولهم بقية الى يوم الناس هذا[١٧] . وكانت لهم قلعة في البحر لايقدر أحد أن يرتقي اليها إلا أن يُرقى بشيء من البَجْر . وهي مرصد لآل عمارة في البحر تنسب الى الجُلنْدى بن كنعان[١٨] .

وتختلف ظروف واسباب انتشار العرب في المحيط الهندي اختلافاً ظاهراً يمكن الحديث عن تفاصيله ، على النحو الآتي :

ا ــ انتشارهم في شرق المحيط الهندي :

للعرب نصيب وافر في أحداث المحيط الهندي وتاريخه . فقد أتاحت لهم معرفتهم بفنون الملاحة ومسالك البحر وعلم الفلك مكانة رفيعة فيه ،

(١٥) ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) ، صورة الارض ، بيروت ، مكتبة الحياة ، ص ٢٤٠ .
(١٦) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١١٦ ــ ١١٧ .
(١٧) ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني . (ت ٣٥٠هـ) ، كتاب الأكليل للسان اليمن ، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .
(١٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢٤١ .

وازدهرت تجارتهم البحرية وأحاطوا بكل متطلبات نموها وتطورها . ويتحدث المقدسي عن مهارتهم الملاحية وتكامل أوجه نشاطهم البحري فيقول : (صاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا ربّانيين وأشاتمة * ورياضيين ووكلاء وتجّار ، ورأيتهم أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره ، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعوّلون عليها ويعملون فيها)[١٩] . وكانت للعرب صلات تجارية واسعة في أرجاء المحيط الهندي قبل ظهور الاسلام . وتذكر المراجع التأريخية ان اكثر ثراء العربية الجنوبية من التجارة البرية والتجارة البحرية والاتجار بالمواد الناتجة في شبه جزيرة العرب ذاتها ، والاتجار بالمواد المستوردة من الخارج ولاسيما من السواحل الافريقية والهند[٢٠] . ويبدو أن انتشارهم الواسع وازدهار تجارتهم في انحائه بدأ في القرن الاول للهجرة . وان العرب وصلوا الى جزر الهند الشرقية ، لاسيما جزيرة سومطرة ، في وقت مبكر من القرن الاول الهجري حيث استقرت ناقلتهم في الساحل الغربي من هذه الجزيرة . ويذكر النويري أن في جهة المشرق مما يلي بلاد الصين ست جزائر تسمى جزائر السيلي (سيليبس)** يقال ان ساكنيها قوم من العرب هاجروا اليها أيام الأمويين[٢١] . كما يذكر ان سفنهم كانت تصل ميناء لوقين (هانوي) أول مرافىء الصين ، وخانقو (كانتون) فرضة الصين العظمى[٢٢] .

(*) أشاتمة ، تعني الربابنة .

(١٩) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٠ .

(٢٠) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ .

(**) سيليبس — من مجموعة الجزر الخارجية في اندونيسيا الواقعة في الجزء الشرقي منها . يتركز سكانها في شبه الجزيرة الشمالية واهم مدنها (مكسر) . ويزاول سكانها صيد الاسماك ، وجمع جوز الهند ، كما يعدّن القصدير فيها .

(٢١) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ص ٢٢٠ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

ويذكر المقدسي تفاصيل السلع والبضائع التجارية المتبادلة فاذا هي : (آلات الصيادلة والعطر كلّه حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلّور والفلفل وغير ذلك . وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبشي والخدم وجلود النمور ... وبتجارات الصين تضرب الأمثال) [٢٣] .

وتطورت بفضل هذه التجارة المتنوعة الواسعة كثير من الموانىء على طول السواحل العربية ، وظهرت في مواضع سوقية تطل على المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر لتوفير مستلزمات هذه التجارة وتقديم أسباب نموها وازدهارها . ومن أهم هذه الموانىء ما يأتي :

١ ـ البصرة :

وهي من أقدم موانىء الخليج العربي وإحدى أمّهات مدن العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الأرجاء [٢٤] . وقد ساعدت عدة عوامل مجتمعة لجعل موقعها ذا أهمية خاصة . فبالاضافة الى موقعها السوقي المتقدم لصد خطر الفرس وعدوانهم المستمر على الأرض العربية ، فهي موضع التقاء عدة طرق بحرية وبرية . أو كما يقول ابن بطوطة هي مجمع البحرين الأجاج والعذب[٢٥] . إذ تقع البصرة عند الطرف الشمالي للخليج العربي . وإليها ينتهي ، أو يبدأ منها ، الطريق السوقي الرئيسي الذي يربط بين المحيط الهندي والبحر المتوسط عبر دجلة والفرات كما ورد ذكره . وينتهي عندها ايضاً

(٢٣) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٩٧ .
(٢٤) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي ، المعروف بابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ص ١٨١
(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

طريق رئيسي آخر يبدأ من اليمامة في قلب جزيرة العرب ماراً بالنبّاج وكاظمة . أي ان البصرة كانت مركزاً رئيسياً لتوزيع تجاري (entrepot) يشمل تجارة الصين والهند وشرق افريقيا ، من ناحية ، وتجارة شبه الجزيرة العربية وأوربا والبحر المتوسط من ناحية اخرى . ويفرض موقعها تغير واسطة النقل من السفينة الى قوافل البر وما يترتب على ذلك من تفريغ البضائع والسلع واعادة حملها ، وتوفير خدمات تجارية عامة ليس من السهل الحصول عليها الا في مدينة كبيرة . لذلك تزايد عدد سكانها منذ تأسيسها سنة (١٧)هـ زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، حتى أصبحت في القرن الثاني للهجرة مدينة الدنيا ومعدن تجارتها واموالها[٢٦] . وأخذت تجارة موانىء الخليج العربي الاخرى تنتقل اليها تدريجياً حتى غدت منطلقاً لتجارة الهند وسرنديب (سري لانكا) وجزائر الهند الشرقية والصين ، فزاد غنى الناس وعظمت ثروتهم حتى بلغت جباية الدولة من أحد تجارها مائة ألف دينار في العام[٢٧] . وتتوسع المراجع الجغرافية العربية في ذكر تجارتها وصناعتها ، فاذا البصرة تشتهر بخزّها وبزها وطرائفها وبأرزّها . وهي معدن اللآلىء والجواهر وفرضة البحر ومطرح البر ... منها تحمل التمور الى الاطراف والحنّاء ، ولهم خزّ وبنفسج وماورد ، وبالأبلة تصنع الثياب الكتانية الرفيعة[٢٨] .

---

(٢٦) احمد بن يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي (ت ٢٨٤) ، كتاب البلدان ، ليدن مطبعة بريل سنة ١٨٩١ ، ص ٣٢٣ ، النجف المطبعة الحيدرية سنة ١٩١٨ ، ص ٨٥ .

(٢٧) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، دار الهلال القاهرة ، ج ٢ ، سنة ١٩٦٨ ، ص ١٧٧ .

(٢٨) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٢٨ .

٢ ـ جـدة :

مدينة على البحر ... آهلة ، أهل تجارات ويسار ، خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر (٢٩) .

٣ ـ عـدن :

عدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات(٣٠) .

٤ ـ سُقُطْرى

جزيرة كأنها صومعة في البحر المظلم وهي سد البوارج . ويسمى المقدسي هذا البحر (بحر العرب)(٣١) . والبوارج ، مفردها بارجة ، التي يعترض بها أهل المنصورة (على نهر السند) مراكب المسلمين المجتازة الى الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها . وهي كالشواني في بحر الروم (البحر المتوسط)(٣٢) . ويذكر أهل الاخبار انها كانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة وقد اشتهرت بالصبر الجيد الذي لايوجد مثله في غيرها(٣٣) .

٥ ـ الشحر ـ على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب ـ

الشحر مدينة على البحر معدن السمك العظيم يُحْمل الى عمان وعدن ثم الى البصرة وأطراف اليمن(٣٤) .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٧٩ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٤ .
(٣٢) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٦٥ .
(٣٣) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٧ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .
(٣٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٨٧ .

٦ ـ صحار :

صحار هي قصبة عُمان ليس على بحر الصين اليوم أجلّ منه ... دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغُوثة اليمن . ممتدة على البحر ، دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة(٣٥) .

إن هذا الازدهار التجاري والثراء العريض الذين شهدتهما الموانىء العربية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي يعنيان ان المحيط الهندي أصبح ـ دون منازع ـ ميداناً لنشاط تجاري عربي ، أشاع الأمن والاستقرار في الأرض العربية والمناطق المجاورة لهذا المحيط . إذ لايمكن لنشاط تجاري ان ينمو ويزدهر الا في ظل حالة أمن وسلام . وقد ساعدت هذه الاوضاع التجارية والاقتصادية المتنامية في انتشار العرب في جنوب شرق آسيا حتى اصبحت لهم في نهاية القرن السادس الهجري مناطق استقرار ومراكز تجارية انتشرت على طول ساحل ملبار بالهند . ثم انتشروا شرقاً فوصلوا الى الملايو ومضايق ملقا ، وانتقلوا بعد ذلك حتى جنوب الفلبين (ديبا) . وفي خضم نشاطهم هذا نقلوا الى سكان هذه المناطق دينهم ولغتهم وحضارتهم ومبادئهم الانسانية النبيلة . وهي معالم لاتزال شواهدها ماثلة في انحاء هذا الجزء من العالم . وقد اشتد ساعد العرب هنا بكثرة من دخل الاسلام من سكان تلك المناطق ، إذ تعاظمت اعداد معتنقيه منذ نهاية القرن السادس الهجري لأنه دين الفطرة الذي صلحت به أمورهم واصبح سداً منيعاً حال دون الطغيان الهندوكي الوافد من شبه جزيرة الهند وما حمله من نظام طبقي صلب مغلق(٣٦) .

---

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٣٦) فيصل السامر ، الأصول التاريخية للاسلام في اندونيسيا ، مجلة الاقلام ، مطابع دار الحرية ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٨ .

ب ــ إنتشار العرب في غرب المحيط الهندي :

لم ينحصر انتشار العرب ودينهم وحضارتهم في شرق المحيط الهندي ، بل امتدت في وقت مبكر الى غربه على طول الساحل الشرقي لافريقيا والمناطق الداخلية القريبة منه • وقد ساعدت عوامل عدة على سهولة انتقال العرب الى هذه السواحل • فالبحر الأحمر لايكو ّن فاصلا مائياً مانعاً لضيق طرفه الجنوبي وكثرة الجزر المنتشرة فيه • إذ لايزيد عرض هذا البحر عند باب المندب على ٢٢ كيلو متراً • وتزيد عرضه ضيقاً مجموعة جزر صغيرة تتوزع بين ساحليه أهمها جزر دهلك وحالب وفاطمة وغيرها • واتخذ الملاحون من هذه الجزر معابر ترسو فيها سفنهم في مراحل رحلتهم بين الساحلين العربي والافريقي •

ويسّرت الرياح حركة الملاحة وانتقال السفن من حضرموت واليمن الى السواحل الشرقية من افريقيا • حيث يتعاقب هبوبها من الشمال والجنوب بصورة موازية لهذه السواحل دون تغير ملحوظ في جهة هبوبها ومعدل سرعتها في فصول السنة المختلفة(٣٧) •

وتثبت المصادر التأريخية أن العرب ، ولاسيما العمانيين منهم ، استقروا في الساحل الشرقي الافريقي وأقاموا حكماً فيه منذ القرن الاول للميلاد • وأن أزد عمان نزحوا الى زنجبار في شرق افريقية بزعامة سعيد وسليمان إبني عباد الجلندى ، بعد أن قمع ثورتهم الحجاج بن يوسف الثقفي(٣٨) • وزنجبار كلمة محرفة عن أصلها العربي (بر الزنج) • وذكر ان جزيرة مدغشقر كانت معروفة عند العرب وقد وفدوا اليها من منطقة الخليج العربي وساحل افريقيا

(٣٧) دبليو • ج • كندرو ، مناخ القارات ، ترجمة على محمد المياح وآخرين ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٦٧م ، ج ١ ، ص ٩٧ •
(٣٨) فاروق عمر ، تاريخ الخليج العربي في العصور الاسلامية الوسطي ، الدار العربية ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص ١٢٠ •

الشرقي. واستقروا في الجزء الشمالي الغربي منها ، وفي جهاتها الساحلية الشرقية . وان تجار العرب الاوائل كانوا يعرفون ، دون شك ، جزر موريشيس(٣٩) .

وقد خضعت زنجبار من الناحية التاريخية لسلطنة عمان أيام حكم اليعاربة* والبو سعيد . وكان حكم عمان ونفوذها يمتدان الى مومباسا وماليندي جنوباً والى مقديشو وأسمرة شمالا . أي أن سيادة العرب امتدت على ساحل افريقيا الشرقي شمال وجنوب خط الاستواء ، واتصل بذلك العمق السوقي العربي على طول هذا الساحل من جنوبه حتى خليج السويس. وأصبح هذا الامتداد السوقي خطاً دفاعياً مانعاً حال دون أية محاولة عدوانية أجنبية . كما أصبح ، في الوقت نفسه ، قاعدة لانتشار حضاري سلمي حمله العرب الى الجهات التي استقروا فيها .

نعمت هذه المناطق الساحلية والجزر القريبة منها في ظل الوجود العربي مدة طويلة تقرب من ألف عام ، تطورت خلالها الزراعة والموارد الاقتصادية الأخرى . وكان النشاط التجاري والنقل البحري من أبرز أعمالهم . واصبح ازدهار اقتصادهم قاعدة رصينة لقوتهم ومنعتهم ومتمماً لمقومات وجود العرب ونشاطهم في شرق المحيط الهندي .

ان القوة والسيادة العربية في هذا المحيط أدتا الى ظهور أوضاع

(٣٩)
L. Dudly Stamp, Africa, John Wiley and Sons, Inc., New York, The Seventh Printing, 1963, PP. 504 — 506.

(*) اليعاربة قبيلة قحطانية كانت من اوائل قبائل اليمن التي نزحت الى عمان بعد انهيار سد مأرب . ولاتزال القلعة التي بنوها في نزوى في القرن السابع عشر ناطقة بتقدم فن العمارة العربية .

جديدة فيه وفي الخليج العربي . فقد انفرد العرب بقوة بحرية لم تجد لهـا منافساً من أي نوع كان . وامتد حكمهم ورسخت قواعد أمنهم من سـاحل المحيط الأطلسي الى الخليج العربي والبحر الاحمر والمحيط الهندي والهند . وكان البحر المتوسط واسطة اتصال في انتظام هذا الامتداد . واصـبحت بايدي العرب مفاتيح الطرق البرية والبحرية التي تربط بين الشرق والغرب ، واصبح العرب تجاراً من الطراز الاول . ومع ان سيلان (سري‌لانكا) لـم تخضع لحكم عربي اسلامي الا أنها مع ذلك اصبحت مركزاً من مراكز التجارة العربية في القرن الثامن الميلادي[٤٠] ، وبقيت تجارة العرب في ارجاء المحيط مزدهرة على مدى ٧٠٠ سنة . وما ان حلّ القرن الثالث عشر الميلادي الا كان للعرب مناطق استقروا فيها ومراكز تجارية انتشرت على طول ساحل ملبـار بالهند . وانتشروا شرقاً فوصلوا الى الملايو ومضايق ملقا وانتقلوا بعد ذلك في هذا الاتجاه حتى جنوب الفلبين . وفي خضّم نشاطهم هذا نقلوا معهم الى سكان هذه المناطق دينهم الحنيف ولغتهم وحضارتهم التي لاتزال معالمها ماثلة في كل هذه الانحاء .وخلال ذلك أوجد العرب في المحيط الهندي ، من الناحية العسكرية ، نوعاً من توازن القوى لم يكن معروفاً آنذاك مما أتاح لمختلف مناطقه استقراراً وأمناً ظلت تنعم بهما قروناً طويلة . ولم يكن انتشارهم في أرجاء هذا المحيط توسعاً بمعناه العسكري والسياسي ، وانما كان وسـيلة لاقامة صلات تجارية وعلاقات حضارية سلمية[٤١] .

---

(٤٠) James Fairgrieve, Geography and World Power, University of London Press Ltd., London, 1924, P. 126.

(٤١) راجـع Frence A. Vali, Politics of the Indian Ocean Region, New York, The Free Press, 1976.

الخاتمة :

هذه المعلومات التاريخية الجغرافية العامة تكشف عن عنصر مشوّق يمكن عن طريقه تطوير جوانب معينة تخرج الدراسة الجغرافية الى حيّز العمل والتطبيق . وهذا يدعو الى ابراز جوانب الجغرافية السوقية التي حققت للعرب حفظ أمن المحيط الهندي أمداً طويلا بما يتفق وأمن الأمة ذاتها . ويمكن ان نجمل بعض هذه الجوانب على النحو الآتي :

١ ـ ان التوزيع الجغرافي للمراكز العربية ومواطن استقرارهم في المحيط الهندي أتاحت لهم السيطرة على مواضع سوقية في غاية الأهمية . فوجودهم في جزر الهند الشرقية واشتداد ساعد الاسلام في هذه المناطق منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي أتاحا لهم السيطرة على مداخله الشرقية ولاسيما مضايق ملقا ، كما أتاح لهم وجودهم في الساحل الشرقي من أفريقيا ، على مقربة من نهايته الجنوبية في جزيرة مدغشقر ، سبل التحكم في مداخله الغربية . ولم تظهر طلائع العدوان الاوربي الا في نهاية القرن الخامس عشر بعد أن أصبح الطريق البري الذي يربط قارة أوربا والبحر المتوسط والخليج العربي غير مطروق كما كان في السابق بسبب سيطرة العثمانيين على بعض أجزائه . وكانت سفن الاوربيين من القلة والضعف بحيث لم تشكل قوة منافسة خطيرة في بادىء الأمر .

٢ ـ اسطول بحري عربي قادر على اداء مهامه الاساسية من نقل البضائع وحماية التجارة البحرية . والأهم من ذلك قدرة سفنه الحربية على مجابهة سفن العدو وتدميرها في المعارك البحرية . وينقل الباحثون ان حكام اليعاربة المتعاقبين جعلوا من مسقط حتى سنة ١٧١٨م أعظم قوة بحرية غير أوربية في المياه الشرقية(٤٢) . وكانت لهم الى جانب ذلك قوات برية مقاتلة مكّنت

(٤٢) صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٦م ، ص ٤١ .

لسلطان (سلطان بن سيف) في نهاية القرن السابع عشر الميلادي من دحر البرتغاليين وطردهم من أقوى حصونهم في مومباسا . وتطبيقاً لمواريث السوق القومي العربي لم يكتف العمانيون بكسب معركة مومباسا وسحق العدو في ساحتها وازاحتهم عن الساحل الافريقي ، بل لاحقوهم الى عمقهم السوقي في هذا المحيط ودمروا مرتكزاتهم فيه . فقد هاجمت سفنهم مواقع البرتغاليين وقواعدهم التي أقاموها على السواحل الهندية في بومبي وديو وكونك وباسين في أوقات متلاحقة ابتداءً من سنة ١٦٦١م الى ١٦٧٤م[٤٣] . وفي سنة ١٨٣٢م نقل سلطان عمان من مسقط الى زنجبار وأصبحت سلطنة منفصلة يمتد نفوذها على مناطق واسعة من شرق افريقيا[٤٤] . واصبحت القوة البحرية تجد في محاور القوة الداخلية سنداً لها ورداءاً يمكنانها من حماية الحصون الداخلية كلما دعت الضرورة الى ذلك .

٣ ـ الحفاظ على علاقات توازن القوى في المحيط الهندي والعمل على استمرار الظروف التي تحقق ذلك بالحيلولة دون انتشار قوة أو فكرة معادية. وكان حصر العدو ، على مايبدو ، من اكثر اساليبهم نفعاً في هذا المجال . ويبرز هذا واضحاً في ميدانين هما :

ا ـ حصر الخطر الفارسي المباشر والعمل على سلب مقوماته . فقد تغلغل الأزد في أعماق فارس واصبحت لهم قوة ومنعة وغلبوا عليها منهم علي بن الحسين بن بشر من الأزد المقيمين في بخارى وكان من الشحنة .

ب ـ التصدي لمحاولات الاستعمار الاوربي الذي حاول زعزعة توازن القوى الذي أقاموه على مدى قرون طوال في المحيط الهندي .

---

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(٤٤) L. Dudiy Stamp, Africa, op. cit., P. 396.

جـ ـ ان تماسك القوة البحرية المتركزة على سواحل الجزيرة العربية وسواحل شرق افريقيا مع محور القوة البرية في الداخل وامتداد عمقها البشري السوقي في أودية دجلة والفرات حتى البحر المتوسط لم يوفرا للأمة العربية حصناً منيعاً يضمن أمنها فحسب ، بل انه حال دون أي اختراق أوربي من الغرب نحو قارتي آسيا وافريقيا . وقد بلغ هذا التماسك ذروته في القرن الثالث عشر للميلاد .

★ ★ ★